اسم الدرس : تفسير سورة الكهف (٤) | الآيات [٣٢ : ٤٥]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.

نستكمل بإذن الله سبحانه وتعالى مجالس سورة الكهف، وأعتذر عن التقطع وطول هذه الفترات، ولكن هي ظروف مرضية، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتم الشفاء على خير وأن يوفقنا لتفسير ومعايشة كتاب الله سبحانه وتعالى.

نبدأ بإذن الله سبحانه وتعالى المجلس الرابع من مجالس تفسير سورة الكهف، وهي كما تعودنا أشبه بالوقفات، مع بعض الإحالات على كتب التفسير لمن أراد الاستزادة إن شاء الله؛ فالأفضل لمن يتابع هذا المجلس أن يرجع إلى المجالس القديمة بحيث يستحضر معنا سياق موقع قصة اليوم أو مجلس اليوم الذي سنتحدث عنه بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومجلس اليوم في سورة الكهف بدأ بقول الله سبحانه وتعالى: {واضرب لهم مثلًا}.

التغلب على الزينة يحتاج الرشد

وحتى نبدأ الموضوع بدون مقدمات؛ لأن هذا هو المجلس الرابع وهو استمرار لمجالس سورة الكهف، ومن المفترض أن تكون مستحضرًا المجلس الأول الذي تكلمنا فيه عن المقدمة والنظرة العامة عن سورة الكهف، وقد ذكرنا فيه أن هناك نظارة معينة تعطيها لنا سورة الكهف؛ فهي تعطينا نظارةً لرؤية الأشياء والزينة على حقيقتها -وليس عموم الأشياء-.

ولو تذكرتم أول مجلس حيث قلنا أن كلمة الزينة جاءت في سورة الكهف ثلاث مرات، ومادة كلمة الرَشد أو الرُشد جاءت في سورة الكهف أربع مرات، وكأن هناك دلالة -والله أعلى وأعلم- على أن التغلب على الزينة، وفتنة الدنيا وفتنة زينة المال، أو أيًّا كانت الزينة الموجودة التي بدأت بها سورة الكهف {إنا جعلنا ما على الأرض زينة} يحتاج إلى الرشد، يحتاج إلى أن يصل إلى مرحلة من الرشاد لرؤية الأشياء على حقيقتها.

ومجلس اليوم يتكلم في صلب هذه القضية من خلال قصة؛ وهذا هو جمال سورة الكهف: أنها تتحدث عن أربع قصص، وكل قصة تضع مفهومًا أو تشير إلى معنى ما.

والجمال -كما ذكرنا- هو أن كل قصة من القصص الأربع كانت في زمان مختلف، ومراكز قوة مختلفة؛ فالقصة الأولى كانت في قمة الاستضعاف، بينما قصة اليوم هي في نوع من الانفتاح الدعوي البسيط -كما نسميه بالواقع المعاصر-.

ففي القصة الأولى لم يكن مسموحًا لك أن تتكلم، وبمجرد أن تتكلم وهو يمسكك فإنه: {إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم}، أما في هذه المرة توجد مساحة للحوار {قال له صاحبه وهو يحاوره}؛ فمع أن الباطل معه المال والزينة والعدة والعتاد، وهو أعز نفرًا، وأهل الحق قلة مستضعفون، إلا أن هناك مساحات من الكلام استغلها أهل الحق؛ فإذًا؛ كل مساحة تفتح لأهل الحق يستغلوها مباشرة لنشر دين الله سبحانه وتعالى؛ وهذا ما سنراه اليوم -إن شاء الله-.

إذًا؛ فقصة اليوم هي -إن صح التعبير- حالة من الزحزحة أو الانزياح قليلًا عن منطقة الاستضعاف التام -وهي الكهف- إلى منطقة فيها مساحة مفتوحة قليلًا للحرية والكلام.

دلالات الأقوال المذكورة في القرآن

وهناك نقطة مهمة جدًّا ذكرت في أول المجلس أريد أن أركز عليها وذكرتها بالتفصيل في مقدمة "سلسلة أصول الانحراف"، في درس بعنوان "استعادة الثقة"، وقلت في نقطة مهمة أن بعض الناس يسأل ويقول: أنت تقول بأن هناك حلولًا للقضايا في القرآن، وأنه من الممكن أن نكتشف أصول الأفكار الضالة الموجودة في الواقع بالعودة إلى كتاب الله، فكيف نكتشف هذه الأشياء؟

وذكرت في درس "استعادة الثقة" كيف نصل إلى مفاتيح وقضايا في القرآن منها: أنك تدرس الأقوال الموجودة في القرآن؛ فعندما يقول ربنا فرعون قال كذا، وقارون قال كذا، وسيدنا موسى عليه السلام قال كذا، وعيسى عليه السلام قال كذا، وقال رجلٌ مؤمنٌ كذا؛ هذه الجمل خلدها الله في كتابه.

فمع أن الكلام الذي قيل على مدار التاريخ كثير جدًّا، فلو افترضنا جدلًا أننا سجلنا كل الكلام من لحظة نزول آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة -وهذا موجود وليس خياًلا وسيحاسب عليه الناس يوم القيامة-، فإن كمية الكلام الذي تكلمه بنو آدم على مدار الزمان كثيرة جدًّا، لكن **الله خلَّد في كتابه بعض الأقوال التي لها دلالات؛ سواء دلالات على نفسية المنافق، ونفسية الفاجر، وطريقة تفكير الطاغية، وتعامل المؤمن وتفكيره ونظرته للحياة، على حسب القائل.**

واليوم معنا قصة فيها أقوال، فلا بد لنا أن نركز ونحلل الكلمات التي قيلت في هذه القصة، فهذا معنى مهم جدًّا؛ أن نحاول قدر المستطاع معرفة الأفكار أو المناهج أو الطرق التي تساعدنا في الاستنباط والتدبر؛ بحيث يكون معنا مفاتيح للتعامل -إن لم يقدر الله لنا إكمال كتاب الله سبحانه وتعالى-، فكما حاولنا أن نحلل كلمات قالها مثلًا بنو إسرائيل؛ ياحبذا -مثلًا- أن تتم دراسة وتحليل: كلمات قالها فرعون، وكلمات قالها رجل مؤمن، وكلمات قالها المؤمنون، وأمنيات المؤمنين في القرآن، وأمنيات أهل الباطل.

فاليوم إذًا؛ معنا قصة فيها: "قال"؛ أي: فيها حوار، وذكرت أننا في حالة من الزحزحة بعيدًا عن الاستضعاف التام الذي في الكهف، حيث يوجد هنا مساحة من الدعوة، بالرغم من أن أهل الباطل معهم العدة والعتاد {قال أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}؛ أي: معهم كلا الأمرين؛ وهذه أيضًا كلمة جديرة بالتحليل مثلما سيأتي -إن شاء الله-.

فهذه هي المقدمة: أن هناك انتقالًا من تلك المرحلة إلى هذه المرحلة، وحدث الانتقال ما بين القصتين بآيات بينية تكلمنا عنها في مجلس خاص، وذكرنا قيمة تلك الآيات البينية على الانتقال، وكان ختام تلك الآيات عن الجنة {وحسنت مرتفقًا}، وتكلمنا عن علاقة الإشارات التي جاءت في آيات النار وآيات الجنة بقصة أصحاب الكهف.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

لمن هذا المثل؟

نبدأ القصة إن شاء الله بقوله الله سبحانه وتعالى: {واضرب لهم}، والقصة مرتبطة بالآيات السابقة؛ لأنه يوجد هنا ضمير "واضرب لهم"؛ لمن؟

فبالتالي سنعود بهذه الآيات لكي نعرف من الذي تخاطبه هذه الآية، فنحن عندما نقول لأحدهم: انتقِ سورة أو مقطعًا قرآنيًا، وعِش معه، فلو انتقيت -مثلًا- مقطعًا قرآنيًّا من وسط السورة ستحتاج إلى أن ترجع إلى ما قبله لكي تفهم؛ لأن السورة متجانسة.

ولكن ماذا قال المفسرون في ترابط هذه الآية بما قبلها عندما وقفوا عند قول الله سبحانه وتعالى {واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما}؟ واضرب لمن؟

غالب المفسرين بل الجمهور-وقد رجعت إلى كلام غالب المفسرين- :الطبري، والنسفي، والرازي، والقرطبي، والبقاعي، وأبو السعود؛ كل هؤلاء قالوا بأن "واضرب" مرتبطة بقول الله سبحانه وتعالى في أعلى نفس الصفحة -هذا طبعًا حسب الطبعة الأشهر عند الناس؛ وهو المصحف السعودي-: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم}.

وسبق أن ذكرنا أن من أسباب نزول هذه الآية: أنه جاء بعض المتكبرين -أيًّا كانت أسماءهم المذكورة في كتب الروايات؛ حيث أن هناك خلافًا في ذلك- إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له: اطرد هؤلاء الفقراء، فربنا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم اضرب لهؤلاء المتكبرين من قريش الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء اعتزازًا بما لديهم من مالٍ وقوة -اضرب لهم- مثلًا هذه القصة؛ ليعتبروا أن دوام الحال من المحال، وأن الدنيا قد تزول، وأن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على تبديل هذه الأحوال في لحظات؛ كما حدث مع الرجل المؤمن والرجل الكافر: الرجل الكافر الذي كان يمتلك الجنات، والرجل المؤمن الذي كان فقيرًا؛ فالله قادر على تغيير الأحوال؛ فقل لهؤلاء المتكبرين الذين طلبوا طرد الفقراء اعتزازًا بما لديهم أن هذه الأحوال قد تتبدل.

فهذا ملخص لما قاله غالب المفسرين:

- الطبري: "واضرب لهؤلاء المشركين الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي مثلًا"،
- وابن عطية: "واضرب لهذه الطائفة المتجبرة التي أرادت أن يطرد الفقراء".

فكل المفسرين الذين ذكرتهم قالوا نفس المعنى، ما عدا قول عجيب جدًّا –وقد بحثت حقيقة عن الأثر أو من أين أتوا به–؛ فهو لم يربطها بآية {واصبر نفسك}؛ فقد وجدت في تفسير الماتوريدي –وهو طبعًا كما تعلمون مهتم بالجانب العقدي وفيه بعض الإشكالات العقدية–، أن ربط القصة كالآتي: أنه كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة أصحاب الكهف، سئل أيضًا عن قصة الرجلين، وعن ذي القرنين، وهذا القول بحاجة إلى أثر كي نقتنع به ونصدقه.

فهو يقول أن الترابط هو: أن النبي سُئل عن أصحاب الكهف وسُئل عن صاحب الجنتين، وعن ذي القرنين، لكن في غالب الروايات أن السؤال الثاني من الأسئلة الثلاثة لم يكن عن صاحب الجنتين، ولكن كان عن الروح؛ كما جاء في سورة الإسراء {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}[الإسراء: ٨٥].

فالخلاصة أن نمشي مع قول الجمهور أن: {واضرب لهم} تعود على المتكبرين الذين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يطرد الفقراء.

وهنا نتعلم أسلوبًا –ونحن طبعًا هدفنا أن نعيش بالقرآن– أنّ من طرق توصيل المعلومة عندما يأتي شخص يتكبر أو يجادل أن نذكر له نموذجًا مطابقًا لما فعله ليكون نموذجًا تحذيريًّا؛ مثلًا كما في قوله سبحانه:{كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}[النحل:٣٣]؛ فعندما يقول قولًا ما، تقول له: مَن قبلك قالوا كذلك أيضًا، فأين هم الآن؟ {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}[مريم:٩٨] إذا تجبر أحد أو طغى أحد فتذكره بما حدث من قبل.

{واضرب لهم مثلًا} جمهور المفسرين على أن هذه قصة حدثت، بينما بعض المفسرين وخصوصًا المتأخرين قالوا: لا، هذا مجرد مثل وأنا أميل طبعًا إلى قول الجمهور بأن هذه قصة حدثت فعلًا.

وبعضهم قال بما أن هناك كلمة "مثلًا" فهذا مجرد مثل، لكن هي إن شاء الله قصة حقيقية.

من الرجلين في المثل؟

{واضرب لهم مثلًا رجلين}؛ فمن الرجلين؟

هناك أناس وقفوا عند كلمة الرجلين، ففي بعض الآثار -في سندها كلام ولكن الأمر قد يتسامح فيه- أن هذين الرجلين هما المذكوران في سورة الصافات {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾}[الصافات:٥١-٥٧] في سورة الصافات؛ حيث كان هناك نقاش بين اثنين في الدار الآخرة: المؤمن الذي هناك في قصة سورة الصافات نظر إلى الكافر وقال: { تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ }

فبعضهم قال هذان هما الرجلان المذكوران، وعندما اختلفوا مع بعض، فيوم القيامة يقول له: أنت كنت ستضيعني وتفتنني بهذا الحوار لولا أن الله سبحانه وتعالى ثبتني.

وهناك رواية إسرائيلية تربط قصة الكهف هنا وقصة الصافات بقصة قبل ذلك، أنهما أصلًا كانا أخوين أو كانا أقرباء أو كانا إخوة من رجل كان غنيًّا ثم مات وورثاه، فكل واحد منهما ورث جنات؛ المؤمن تبرع بغالب هذه الجنات، حتى أصبح فقيرًا، والكافر نمَّى هذه الجنات، وحدث بعد ذلك أن وقع المؤمن في ضائقة مادية؛ فطلب من المشرك فتكبر عليه، وقال له بما معناه: دع الدين ينفعك أو دع الآخرة تنفعك، أو مثل هذا، فحدث هذا الحوار، وكل هذه مجرد إسرائيليات، ولن تفيدنا كثيرًا في التفسير، وخصوصًا أنه -وهذا سنشير إليه إن شاء الله- في مسألة التعامل مع الدنيا والخلافات، هل يصح من إنسان أن يتبرع بكل ما لديه؟، سنشير إشارة سريعة إن شاء الله لهذا المعنى بإذن الله سبحانه وتعالى -أسأل الله التيسير-.

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾

أفعال الله سبحانه وتعالى

{واضرب لهم مثلًا رجلين}، أريد منكم أن تركزوا في الكلام {جعلنا لأحدهما جنتين وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعًا۝ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا خلالهما نهرًا} نجد نون العظمة ونسبة الأفعال إلى الله سبحانه وتعالى، وهناك معنىً ذكرته في المجلس الثاني من سورة الكهف عندما تعود إلى قصة أصحاب الكهف -أتمنى أن تقرأ قصة أصحاب الكهف بنظرة البحث عن أفعال الله سبحانه وتعالى-، عندما نقرأ القرآن ونحن نشاهد ونعاين ونعايش أفعال الله سبحانه وتعالى المبثوثة في القرآن يطمئن الإنسان؛ وهذا معنى محوري ليس في هذه السورة فحسب، وإنما في القرآن كله؛ لذلك في ختام المصحف بعدما تمر على كل هذه الأفعال ماذا تقول؟

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾}[الإخلاص:١-٢] هو الذي فعل كذا وكذا، وهو الذي نجى هذا وأهلك ذاك، وشفا هذا ونصر ذاك، وأعطى ورزق هذا ومنع ذاك، هذه كلها أفعاله سبحانه وتعالى؛ لذلك هنا بدأت الآية بالتركيز على جعلنا وجعلنا وحففناهما؛ فربنا الذي فعل كل هذا، لكي تحدث المقابلة بين نسبة الأفعال إلى الله وبين ذلك الظالم الذي قال: {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}.

{جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب}، جنتين مملوءتين بالأعناب، وانظر إلى عطاء الله سبحانه وتعالى ليس مجرد أعناب فحسب، بل حتى تكون محميةً من الرياح ولكي لا تفسد {وحففناهما بنخل}، وليس حففناهما بسور أو بجدار، لا، بل بنخل؛ حتى تجتمع الخيرات والمتع والنعيم البصري؛ فالنخيل أيضًا موجود مع الخير الذي يُدِرُّه هذا النخل.

{وجعلنا بينهما زرعًا} بينهما:"هما" تعود على ماذا؟

بعض المفسرين قال، وهذا هو الأشهر: {وجعلنا بينهما} أي: بين الجنتين؛ فتخيل شخصًا عنده جنتين من أعناب والجنة محفوفة بنخيل، وما بين الجنة والأخرى ليس طريقًا فارغًا، فعندما يجب أن ينتقل بين هذه الجنة وبين الجنة الأخرى الطريق بينهما ليس طريقًا صحراويًّا أو طريقًا رمليًّا، بل {بينهما زرعًا} كأنها متصلة: جنتان متصلتان كأنهما جنة واحدة، فانظر إلى هذا النعيم!

والإنسان عندما يقرأ عن هذا العطاء الرباني يتصور أن يقابله مباشرة: فسجد شكرًا لله، أو فقال: الحمد لله الذي أعطاني.

وقيل {جعلنا بينهما} أي: وجعلنا بين النخيل والأعناب؛ بمعنى أن هناك أعنابًا ونخلًا، وباقي الجنة ليس فارغًا، بل مملوءًا بالزروع وثمار أخرى، لكن –والله أعلم– فكرة أنها بين الجنتين يعطي نعيمًا أفضل.

قلنا أن الآية بدأت بتذكرة لأهل الكبر وأهل الغرور، فسنأتي بقصة مطابقة للكبر والغرور، ثم نبين عاقبة هؤلاء: واضرب يا محمد صلى الله عليه وسلم هذا المثل لهؤلاء المتكبرين المغرورين الذين طلبوا منك طرد الفقراء ؛ وبالتالي **هذا المثل يصلح لكل من تكبر وطغى على فقراء المؤمنين، ونظر ازدراءً لأهل الإيمان**، ونظر إلى أهل الإيمان، وقال: من هؤلاء؟ لا يملكون شيئًا؛ فهذه قصة تصلح مثلًا وعبرةً لهم.

إذًا؛ واضرب يا محمد صلى الله عليه وسلم مثلًا لهؤلاء المتكبرين {رجلين جعلنا} أي: بقدرتنا سبحانه وتعالى {جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعًا ۝ كلتا الجنتين} الاثنتين {آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}.

وقبل أن نرجع إلى شرح التعبير هنا، أقول لكم إن معايشة التفاسير متعة حقيقية؛ أن تنتقل بين التفاسير وتقرأ كلام المفسرين في محاولة فهم كلام الله سبحانه وتعالى.

مقابلة النعمة بالجحود

والآن نعود إلى الشرح: "وجعلنا"، "وحففناهما"، فالأفعال هنا منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن ربنا هو الذي فعل وليس الرجل.

فلماذا الفعل هنا {كلتا الجنتين آتت}؛ أي: هي التي آتت أكلها، {ولم تظلم منه شيئًا}، و"تظلم" هنا بمعنى تنقص؛ أي: ولم تُنقِص الجنة، أو لم تَنقص ثمرة واحدة؛ فجاء التعبير هنا: {آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}؛ قيل: لاستحضار المقابلة بين فعل الجنة التي خلقها الله سبحانه وتعالى وأكرمه بها، وبين إعراضه؛ لترى الفرق الشاسع بين النعمة وكمال النعمة وبين إعراض المعرض.

كأن الجنتين ذاهبتان إلى المشرك الجاحد بأمرٍ من الله، تخيل المشهد: {كلتا الجنتين آتت أكلها}؛ الجنات ذهبت، وجمّعت نفسها، وكأن الفعل منسوب للجنات؛ فكلتا الجنتين آتت أكلها وكل ما منّ الله سبحانه وتعالى به، ولم تدخر الجنة شيئًا أو تخبئ شيئًا، و لم تُسقط شيئًا، ولم تُتلف أو تفسد شيئًا، فلم تظلم ثمرة واحدة.

لتنظر البَون الشاسع بين عطاء هذه الأرض بأمر من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء: ما تسقط من ورقة في هذه الجنات إلا ويعلمها الله، وما تخرج من حبة إلا ويعلمها الله، وما ينزل من جذر في الأرض إلا ويعلمه الله، كل شيء بقدر الله سبحانه وتعالى ونفضل بعضها على بعض في الأكل، فحتى التفضيل بين كل ثمرة وأخرى بتقدير من الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾}[عبس:٢٥-٢٩] كل هذه الأفعال منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى.

هذه هي **حقيقة التوحيد: أن تستحضر أن كل هذه الأفعال منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى.**

الخلاصة إذًا؛ أن تستحضر أن كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا، وليس: "لم تظلم منه ثمرًا"، لا، بل "شيئًا": نكرة، أيًّا كان هذا الشيء؛ أيًّا كان زرعًا، ثمرة، ورقة، لم تظلم شيئًا؛ لاستحضار أن الجنتين آتت كل ما لديها وأعطته لهذا، ثم هو يأخذ هذه الأشياء، وبدلًا من أن يقول: لك الحمد يا رب، ولك الشكر يا رب، يعرض {مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ}[يونس:١٢]، وكأنه لم يحصل على شيء؛ قمة الجحود.

فالآية تصور هذا الجاحد، وتصور نفسية هذا المعرض عن نعم الله سبحانه وتعالى {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا}.

ولكن ماذا يعني هذا التعبير القرآني؟ إنه يستثير بداخلك جحود هذا المعرض؛ فكلتا الجنتين الاثنتين -ليست واحدة- آتت أكلها كله، ولم تظلم منه "شيئًا": نكرة.

{وفجرنا} أي أنه ليس شخصًا عنده جنة كبيرة من أعناب وجنة أخرى من أعناب وبينهما زرع ومحاطة بنخيل فحسب، وإنما هو كذلك لن يتعب في السقي.

{وفجرنا خلالهما}، و"فجرنا" بقدرة الله سبحانه وتعالى؛ فليس هو الذي ذهب وتعب، بل {وفجرنا خلالهما نهرًا}.

هذا العطاء الذي من الممكن أن تستغربه، هناك عطاء مثله وأعظم وأشد وأكثر منه موجودٌ في داخلك في جسدك، ولكننا نعرض عن نعم الله سبحانه وتعالى؛ مجرد أن تتأمل في عينك، وفي يدك، ومفاصل يدك وعضلاتك، حتى مجرد أنك تتعلم، وتمسك القلم، هذا فيه الكثير من الإتقان والإحكام.

وكونك تراني الآن، وتشاهدني وتسمعني الآن، وكل نعيم عظيم نحن نعيش فيه.

تأمل كيف أجرى سبحانه وتعالى الوعاء الدموي الشرياني الذي يُوصل الغذاء، ثم الوريد الذي يسحب المواد بعد ما تم استعمالها، والأعصاب المتخللة، وكيف أن يدك –مثلًا– ليست شفافة بحيث يكون شكلها مرعبًا، كل هذه الأمور سبحانه وتعالى!، فعندما تقرأ بمجرد أنّ في الأرض نخيلًا وأعنابًا و نهرًا، تقول: سبحان الله!، وانظر {وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[الذاريات:٢١]، فالإنسان لا بد أن يستحضر نعم الله سبحانه وتعالى.

{ولم تظلم منه شيئًا ۝ وفجرنا خلالهما نهرًا}

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

ما هو الثمر؟

{وكان له ثمر فقال لصاحبه} انتبه حيث بدأ هنا بالكلام ، فهذه أول كلمة سيقولها ذلك الرجل المشرك و يتكلم بها؛ حينما امتلك الثمرة، وقبل ذلك لم يكن يتكلم.

فعندما كان النخيل ينشأ ، والأعناب والزرع لم يكن يتكلم، **كأن لحظة الطغيان بدأت مع الإحساس بالاستغناء**، فبمجرد أن أمسك الثمرة بدأ يشعر أنه لا يحتاج إلى الله وإلى توفيقه.

وهناك أناس هكذا، بمجرد أن تنجح، أو تملك المال، أو تستلم منصبًا، {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ }[العلق:٦-٧]

{وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره}

انتبه للآيات التي ستأتي: يحدث شيء أولًا، ثم يقول شيئًا، كما في الآية التي بعدها: {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه}،{قال ما أظن}، وهنا: {وكان له ثمرٌ}، {فقال لصاحبه}.

{وكان له ثمرٌ} ماذا يعني: وكان له ثمارٌ؟ فهل معناها بمجرد أن أنبتت الجنات الثمار، قال لصاحبه؟، وهذا ما أنا أميل إليه؛ فيكون معنى الثمر هو: الثمر المعروف الذي تعطيه الأشجار، وكثير من المفسرين قال ذلك.

وهناك قراءة بضم الميم (ثُمر)؛ ومعناها هنا يكون: ألوانًا أخرى من المال، وقد اختلفوا في معنى الثمر أو الثُمر، هل هو كل ألوان المال والنعيم؛ بمعنى أن له أموالًا أخرى وعروضًا وأشياءً أخرى يملكها، أم هذا هو الذهب والفضة؛ يعني له ذهب وفضة وأموال أخرى غير الثمار، أم ألوان الثمار التي خرجت؟

والأقوال كلها موجودة، فما الفرق؟

نحن أمامنا هنا قولان:

- هل {وكان له ثمر} أي أخرجت الجنتان الثمار،
- أو أن "وكان" ستفيد معنى تأسيسيًّا جديدًا غير التأكيد على الذي ذكر؛ أي: وكان له بالإضافة إلى ثمار الجنة مالٌ آخر؛ بمعنى أن ربنا لم يكرمه بالجنات فحسب؛ وهذا زيادة في طغيانه، وزيادة في نعم الله وفضله سبحانه وتعالى عليه مع إعراضه.

{وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}

بداية القصة واللحظة المهمة

هنا يوجد سؤال: فجأة قال: {لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر} ،وهنا نحتاج أن نقف وقفة: لماذا قال له؟ ومن هو هذا؟

كما قلنا تقول الروايات والقصص التي ذكرناها وربطتها بسورة الصافات أنهما كانا إخوة، وأن المؤمن احتاج مالًا من المشرك، وأتى إليه، فقال له: أنت أنفقت مالك في الدِّين، ودع الدين ينفعك.

أو أنه كان بينهما علاقة -أيًّا كانت هذه العلاقة-، {فقال لصاحبه} كان بينهما صداقة؛ فالقرآن قال: "صاحبه" و بعض المفسرين أشار لذلك.

وهنا كتبت سؤالًا: لماذا قال المشرك له أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا؟

لماذا في بداية القصة وأول جملة فيها ونحن نقرأ {واضرب لهم مثلًا رجلين جعلنا لأحدهما...} كانت أول كلمة قيلت هي: "أنا"، وثاني كلمة قيلت في قصة صاحب الجنتين هي: "أكثر"؛ فتكون القصة هنا تركز على هذا المعنى.

ودائمًا؛ وهذا ما ذكرته في شرح قصة أصحاب الجنة في سورة القلم -السورة نفسها ليست موجودة، لكن قصة أصحاب الجنة موجودة على "الساوند كلاود"، ومن الممكن أن ترجعوا إليها- أن **من أسلوب القرآن أنه يبدأ القصة من اللحظة المهمة** { إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا}[القلم:١٧].

وهنا بدأ القصة: {أنا أكثر}، ومن الممكن أن يكون هناك خلفيات للقصة نحن لا نعرفها؛ فهل كانوا أقارب؟ هل اختلفوا؟ هل كان يريد أن يفسد المؤمن؟؛ حيث أن بعض المفسرين استنتجوا ذلك؛ فقال بعضهم أن المشرك أراد أن يفتن المؤمن، وجد أن المؤمن فقير، والمشرك حزين لكون المؤمن مؤمنًا مع كونه فقيرًا؛ فأراد أن يفتنه.

فالمشرك ذهب إلى المؤمن، وأتى به، ودخل به الجنة -وسنشير إلى هذا المعنى في الآية القادمة- وأراد أن يفتنه، فقال له: {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}؛ **فكلمة المشرك هنا هي أسلوب فتنة للمؤمن عن طريق الإبهار الدنيوي.**

وقال بعضهم: لا، هذا كان جوابًا لكلام قاله المؤمن؛ فحاول المفسرون أن يستنتجوا لماذا بدأت القصة فجأة بقول المشرك: {أنا أكثر منك مالًا}؟ وما الخلفية التي خلف هذه القصة؟

فهناك إذًا احتمالان: إما أن المشرك هو الذي بدأ الكلام وهو يريد فتنة المؤمن، وإما أن المؤمن ذهب يدعو المشرك؛ وهنا يوجد إشارة إلى فكرة الدعوة، فأصحاب الكهف لم يستطيعوا أن يقوموا بالدعوة ففروا؛ فهناك يوجد مشهد في قصة أصحاب الكهف: {إذ قاموا فقالوا}؛ وهنا المؤمن هو الذي ذهب ودعاه إلى الله سبحانه وتعالى، فكان الرد أنه لا يحتاج إلى كلامك هذا {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}.

- فإما أن يكون ابتداء كلامٍ يريد فتنته،
- أو جواب سؤالٍ عن دعوته.

فالخلاصة أن أسلوب القرآن يركز على المعنى المحوري الذي يشرح هنا نفسية ذلك المجرم والظالم الذي بدأ بكلمة "أنا".

التكاثر

ومع ذلك فليس معنى أنه ظالم أن لا أذهب وأحاول أن أقنعه وأدعوه؛ لذلك توجد هنا لفظة "الحوار": {فقال لصاحبه وهو يحاوره}؛ فكما ذكرنا كأنها تشير إلى أن هناك مرحلة انفتاحية قليلًا تسمح بحالة المحاورة غير الموجودة في قصة أصحاب الكهف.

{فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا}؛ اعتزاز! -أعوذ بالله- مثلما قال إبليس: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ}[الأعراف:١٢][ص:٧٦]، فهو يرى نفسه {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾}[العلق:٦-٧]

رأى نفسه مستغنيًا {أنا أكثر منك}؛ وكلمة"أكثر منك" هذه -للأسف- هناك أناس صرفوا أعمارهم كي يقولوها؛ فهناك أناس كل الذي يحركهم في الحياة هو أن يقولوا لفلان: أنا أحسن منك في المال، ويقول لفلان أنا سيارتي أحسن من سيارتك، وأنا بيتي أحسن من بيتك، وأنا شهادتي أعلى.

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ } [الحديد:٢٠] أي أن هناك أناس يضيعون جزءًا كبيرًا من الدنيا لأجل التفاخر والتكاثر، فهناك بعض الناس إذا ما غاب الوسط الذي حولهم، سيفقدون جزءًا كبيرًا من المحرك، الذي يحركهم: المفاخرة والمكاثرة { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ }[التكاثر:١-٢]

إذًا، مسألة {أنا أكثر منك} كلمة خبيثة تسيطر على الإنسان؛ فأكثر على وزن أفعل وهو اسم تفضيل، بمعنى: أنا خيرٌ منه؛ والذي هو: { أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ }[البقرة:٢٤٧]

المفاخرة: أنا أفضل، أنا أحسن..، يظل الشيطان يضغط على هذه النقطة، ويحرك بها الإنسان في المسار الخاطئ؛ أنا أكثر منك، أكثر ماذا؟ حتى لو عبادة -مثلًا- لا يجب أن يكون ذلك دافعًا للطغيان.

{أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا} :الطغيان المادي والفرح بالعدة والعتاد.

{نفرًا}: هل المعنى المقصود بكلمة "نفر":

- الأشخاص والأفراد؛ فيكون مقصودًا بها أولاده، وهذا -المؤمن- كان لا ينجب؟
- أو نفرًا: الجنود؟؛ ومعنى النفر: التحرك السريع؛ فينفرون معه إذا أراد، وعندما يطلب شيئًا ينفذوه بسرعة.

بعض المفسرين قالوا: "نفرًا" هنا: ولدًا ، ولكن لماذا قالوا ذلك؟؛ لأن المؤمن عندما رد على هذه الجملة -وسنرى ردود المؤمن المركزة- قال: {إن ترن أنا أقل منك مالًا وولدًا} فهو كان يقصد نفسه،

- أو "نفرًا" هذه تشمل الاثنين؛ أنه كان يعايره بالاثنين.

فالخلاصة؛ {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا} هذه المكاثرة التي ضيعت كثيرًا من الناس، بل حتى بين أهل الدين يدخل الشيطان في قضية المكاثرة: أنا معي إجازات أكثر، أنا حافظ أكثر منك، أنا معي كتب أكثر منك..،

المكاثرة حتى في طلب العلم والكتب والمشايخ! -للأسف- تدخل وتفسد نوايا الناس، وأحيانًا لا بد للإنسان من أن يحرر نيته وهذا أمر صعب جدًّا -نسأل الله السلامة-، والذي يقرأ كلام السلف يرى احترازهم من قضية النوايا: لماذا ذهب يأخذ إجازة؟ لماذا ذهب إلى الشيخ الفلاني؟ لماذا ذهب ليأخذ ذلك الكتاب؟.

فالإنسان يستكثر أحيانًا -وما أبرئ نفسي-، ولكن يذيبه الله بالتوكل وباللجوء إلى الله سبحانه وتعالى.

ولماذا يفعل هذا؟ ابن القيم كان له كلام جميل في شرح {ألهاكم التكاثر} في قضية المكاثرة حتى بين أهل الدين؛ لأنه مثلما ذكرت بعض الروايات أن عُيينة والأقرع ذهبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالا: "نحن سادات العرب، نحِ عنا سلمان"؛ بمعنى: من هذا؟، نحن معنا المال، فمن هؤلاء حتى يجلسوا معنا.

فمسألة المكاثرة، وهذه الثقافة التي أسميها في الوقت الحالي: الثقافة الرقمية؛ أي أننا نقيم أنفسنا بالأرقام، أنت كم معك من كتب؟ كم شخص يتابعك؟ كم شخص شاهد؟...أصبحت حتى عند الأطفال!؛ عندما يرى أحدهم مقطع فيديو أول ما يلفته هو شاهده مليون، أو مائة ألف..

أصبحت ثقافة الأرقام مسيطرة على الناس، وأخلاق السوق بدأت تتدخل وتتغلغل -للأسف- حتى عند بعض أهل الدين، فمن المهم جدًّا الحذر من هذه الكلمة وخطورة تغلغلها بين الناس؛ فقد ضيعت أعمار أناس سافروا في الدين لطلب العلم لأجل المباهاة!

هل تتخيل أن هناك أناسًا تعبوا ودرسوا لأجل المباهاة فقط!، وهناك من سجل وحضر دروسًا أيضًا من أجل المباهاة -حفظنا الله وإياكم-.

هذا أمر يتطلب من الإنسان أن يحرر نيته فيه جيدًا.

والآن انتبهوا معي جيدًا، هناك ثلاث جمل قالها الرجل الظالم وسترى معي كيف كان رد الرجل المؤمن على هذه الجمل الثلاث.

الجملة الأولى: التي بدأت بها القصة: {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}؛ هذا كان دافعًا ومحركًا عنده، هذا كان غاية عنده يريد أن يصبح هو الأكثر مالًا من صاحبه، وحُققت له غايته التي كان ينشدها، فمتى قالها؟ وكل شيء لا بد أن يرتبط بشيء آخر، فهو قال : "أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا" بعد قول: "وكان له ثمر"

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

الجملة الثانية:

أريدك أن تتخيل معي هذا المشهد –بغض النظر عن الخلفية التي كانت قبل هذا الحوار كما قلنا، هل ذهب المؤمن للرجل الظالم ليدعوه إلى الله، أو الذي بدأ بالكلام هو الرجل الظالم–: فهما الاثنان واقفان أمام الجنات لم يدخلاها بعد، والمشرك يقول للمؤمن: أنت تكلمني أنا؛ فأنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا.

ثم قام المشرك بنوع من الدبلوماسية السياسية، وأخذ بيد المؤمن وقال له: هيا لنكمل نقاشنا في مكان هادئ، وأخذه إلى داخل الجنات.

الإبهار البصري

{ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال}

انتبه هنا إلى "ودخل"، "قال"، "ما أظن"، هو مازال يكلم المؤمن، والقرآن لم يقل "ودخلا"، بالرغم أن كلاهما قد دخل؛ فليس من الممكن أن يدخل الظالم الجنات وحده، ويظل المؤمن في الخارج، ويتكلم الظالم وينادي على المؤمن بصوت عالٍ أو يكلمه في الهاتف مثلًا؛ فالمراد هنا أنهما دخلا الجنات معًا.

ومن أروع المعاني التي قيلت في ذلك: معنىً نقله الإمام الثعلبي قال: "أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به ويريه إياها ويعجّبه منها"

"تعالى لأُريك" أسلوب خبيث جدًّا في النقاشات؛ وهو: (الإبهار البصري)؛ بمعنى أنك إذا أردت أن تضغط على أحد في النقاش استعمل الأسلوب البصري.

كما حدث تمامًا في قصة قارون؛ حيث بدأت القصة بنصائح متتالية، فماذا كان رد قارون عليها؟

كان رده عجيبًا جدًّا!، توقعت –مثلًا– أن يرد على كلمة مما قالوا مثل: { وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }[القصص:٧٧]، فيخبرهم بما كان يفعله ليبرر ويدافع عن نفسه، لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك أبدًا؛ فكل ما فعله هو أنه خرج على قومه في زينته، فتغير كلام الناس له، فالذي كان ينصحه بالأمس أصبح يعترف للناس بأنه ظلمه، وقال كلامًا ليس فيه، واعتذر لقارون { قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ }[القصص:٧٩]؛ فهو يريد الآن أن يصبح مثل قارون!؛فهذا هو الإبهار البصري.

والرجل المشرك هنا أراد أن يستعمل نفس الأسلوب، فقال أولًا: {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}، وحتى تقع هذه الكلمة وقعها في نفس صاحبه أخذه وأدخله الجنة وأكمل كلامه.

وكأن القرآن يريد أن يوضح أن المؤمن دخل معه بجسده فقط؛ فلم يتأثر قلبه ولم يتأثر بصره، – والله أعلى وأعلم وهذا المعنى لم أجد أحدًا قاله قبل الآن– فكأن المشرك هو الوحيد الذي دخل.

لذلك التقط الزمخشري لقطة جميلة جدًّا –وإن كان قد اعترض عليه بعض المفسرين بعد ذلك–؛ حيث قال: "ودخل جنته"، ويعجبني في المفسرين أنهم يقفون عند كل كلمة؛ ففي البداية قال الله عز وجل: "كلتا الجنتين"؛ إذًا فهما اثنتان، فكيف قال الله تعالى بعد ذلك "جنته"؟

- وهنا قال بعض المفسرين أنه لن يدخل الجنتين في وقت واحد، فبالتأكيد أنه سيدخل إحداهما قبل الأخرى.
- وقال البيضاوي: جاءت بالمفرد مع أنهما جنتين؛ لاتصال كل واحدة بالأخرى وكأنهما جنة واحدة.
- وقال الزمخشري أن الإفراد هنا له دلالة ليس لها علاقة بما قاله الآخرون؛ فالمقصد هنا جنته التي ليس لديه غيرها؛ فهو لا يأمل في جنة الآخرة.

أحيانًا يقول أحدهم: أنا أدخل مكاني، بيتي، مستقري..؛ يقصد بذلك أنه حياته كلها.

فالزمخشري له تعبيرٌ جميل هنا؛ وهو بالنص: "ودخل ما هو جنته، ما له جنة غيرها"، أي أنه لا

نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون بها؛ فما ملكه في الدنيا هو جنته هذه، ولم يقصد القرآن أن يبين أنهما جنة واحدة أو جنتين أو أي شيء من هذا القبيل.

والخلاصة: دخل الظالم جنته وهو ظالم لنفسه.

حالتك عند رؤيتك للنعمة

ولاحظ معي الواو هنا فهي تصف الحال؛ {وهو ظالم لنفسه} فهو قد ظلم نفسه، فالمتكبر مريض قد ظلم نفسه.

وقد قرأت ونحن نشرح سورة لقمان { وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ }[لقمان:١٨]؛ حيث قال بعض أهل اللغة أن الصعر: مرض يصيب الإبل؛ فيجعل رقبتها مرفوعة؛ فكأن رفع الرقبة هذا مرض، فالتكبر إذًا؛ مرض يصيب الإنسان، ويجعله يتكبر –والعياذ بالله–.

إذًا؛ دخل جنته، وحاله أنه ظالم لنفسه، وهذا مهم جدًّا: **ما هي حالتك عند رؤيتك للنعمة؟** فلان حين يرى شهادته أو يرى مجهوده أو يرى إنتاجه يكون في حالة إيمان؛ فتجده بمجرد رؤيته للنعيم يقول: "هذا من فضل الله".

ذو القرنين تعب في بناء السد، وقال لهم سأعمل وستعملون معي: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا} [الكهف:٩٦]، وبعد أن تعب وانتهى من كل هذا ورأى النعمة، قال: { هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي }[الكهف:٩٨]؛ فهذا رأى النعمة وهو في حالة الإيمان، والذي ظلم نفسه رأى النعمة وهو في حالة الطغيان.

ورؤية النعمة في حالة الإيمان تجعل الإنسان ينسب الفضل إلى الله سبحانه وتعالى، ورؤيتها في حالة الطغيان تجعله ينسب الفضل إلى نفسه وينسى قدرة الله سبحانه وتعالى.

استقرار الأمر

وماذا قال الرجل بعد ذلك؟ {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}!

هذه جملة خطيرة جدًّا تشرح لنا نفسية الطاغية من داخلها. فأنت أحيانًا تتعجب من بعض الطغاة حين يتكبر ويظلم ويستمر في ذلك؛ تريد أن تسأله كيف وصلت إلى هذه الحالة؟ ألا تخاف أن يحدث تداولٌ للسلطة أو الحكم؟؛ فقد قال الله تعالى: { وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ }[آل عمران:١٤٠]؛ فالله سبحانه وتعالى قد يسلط عليك من يهلكك، وهذا شيء طبيعي؛ فكما وصل هذا الكرسي إليك سيصل إلى غيرك، ولو دامت لأحد لما وصلت إليك؛ فقد قال الله أيضًا: { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ }[إبراهيم:٤٥]

فهذا قد سيطر عليه التفكير بأن الذي هو فيه سيظل مستقرًا على ما هو عليه؛ وهذا **معنى مهم عند الشيطان وهو المدخل الذي يدخل منه إبليس إليه؛ وهو: قضية الاستقرار**، كما دخل إلى نبينا آدم عليه السلام من هذا المدخل؛ حيث قال له: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ} [طه:١٢٠] فهو يعلم أن النفس البشرية تبحث عن الاستقرار.

فالطاغية إذا ظن أن الأمر سيستقر له يطغى أكثر، ولو شعر باضطراب سيضطرب، لذلك لعب فرعون على هذه النقطة: "الخوف على الاستقرار"؛ فعندما جاء نبي الله موسى عليه السلام، بدأ فرعون يخاف على ملكه، فذهب إلى قومه وقال لهم: { إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر:٢٦]

والمعنى: أني أخاف عليكم من أي تغيير يحدث، فنحن نعيش معًا منذ زمن وحياتنا مستقرة، على الرغم من أنه كان يعذبهم ويستعبدهم، وكأنه يقول لهم: الذي تعرفونه خيرٌ من الذي لا تعرفونه. وأنتم تعرفونني وعذبتكم وعرفتم أقصى ما يمكن أن أعذبكم به ومتعايشين على ذلك لسنين، فارضوا بي، { إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }. وهناك من اقتنع بكلامه فعلًا، وخاف من أي تغيير سيحدث.

فالطاغية دائمًا عنده إحساس داخلي {ما أظن} لم يقل: "لن تبيد" -انتبه معي-، بل قال: {ما أظن أن تبيد}؛ أي أنه لن يأتي في ظني أصلًا؛ كما في قول الله تعالى: { وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ

اللَّهِ} [الحشر:٢]؛ فهذا المعنى موجود عند الكثير من اليهود والطغاة؛ وهو إحساس بأن الأمر سوف يستقر.

فهي كلمة خبيثة -كما قلنا-؛ فهو قد اعتمد على الإبهار البصري في نشر الكلام، وهذا الأسلوب يوجد بكثرة في كلام كثير من الملحدين؛ فقد وجدت أحد الملحدين المشهورين يريد أن يفتن الناس في قضية معينة، ورأيت أغلب كلامه يعتمد على الإبهار البصري والحجج التي في كلامه ضعيفة جدًّا، لكني فوجئت أن أناسًا كثيرين يسألون، وقال أحد الأخوة حينها: إذا حذف الإبهار البصري الموجود في كلامه سيصبح كلامًا فارغًا لا يؤثر.

فكلمة "ما أظن أن تبيد" تحتاج تحليلًا، تحتاج وقفة، وتحتاج كلامًا أكثر مما قلنا ولكني أريد أن أكمل سريعًا.

دعونا نرجع خطوة إلى قوله تعالى: { وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ }؛ قولهم هذا خلاف قول ذي القرنين تمامًا، فذو القرنين قام بشيئين:

١. عمل وتعب، ولكنه قال في النهاية: { قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي }؛ فاعترف أن كل ما فعله هو من فضل ربه ورحمته، وأنه لم يفعل شيئًا.
٢. وأكمل كلامه مبينًا أنه -السد- لن يدوم، فقال: { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }

إذًا؛ فذو القرنين فهم حقيقة العبودية.

فتعلّم أنه عندما تتعب لا بد أن تنسب الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وتعترف أن الأمر قد يذهب في لحظة.

على عكس هذا الرجل صاحب الجنتين؛ فقد قال أنا الذي تعبت، أنا أكثر منك مالًا، وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا.

- إذًا؛ فالجملة الأولى هي {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}
- والجملة الثانية هي: {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}.

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

الجملة الثالثة:

وهي التطور الطبيعي لهذه الحال التي تبدأ بالافتخار والتكبر، ثم الإحساس بالأنا، وبعده يأتي الإحساس بالاستقرار التام وأنه لن يتغير شيء، ثم يأتي بعد ذلك الاعتراض على وجود الساعة أصلًا؛ فلماذا تأتينا الساعة ونحن قد سيطرنا على كل شيء؟! { وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا }[يونس:٢٥]؛ وهذا هو الإحساس الذي يأتي بعده الهلاك مباشرة.

وهذا ما يحدث الآن في الحضارة المعاصرة التي نعيشها؛ فقد أحسوا أنهم سيطروا على كل شيء في الطبيعة { وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا }.

فهنا بدأ يقول نفس الكلمة عندما أحس بالطغيان {وما أظن الساعة قائمة}؛ فهو لم يفكر حتى مجرد تفكير طالما أن الدنيا حوله مستقرة، وهو مسيطر على كل شيء، ويملك جنات ونخيل وأعناب، فلماذا تأتي الساعة؟!

خطورة الربط بين العطاء المادي ورضا الله عز وجل

وأكمل كلامه، وكأنه يريد أن ينهي هذا النقاش والجدال، فلنفترض أنه يوجد يوم القيامة {وما أظن الساعة قائمة ولئن} للشك {رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا}؛ فالذي أعطاني هذا هنا لا شك أنه سيعطيني هناك؛ فالخير والنعمة يصحباني أينما ذهبت.

وهذه **نقطة خطيرة جدًّا؛ وهي الربط بين العطاء المادي ورضا الله عز وجل** -وقد تكلمنا فيها مرات كثيرة-، ومن السور التي فصّلت هذه النقطة: سورة الفجر، وسورة سبأ، فارجعوا إليها وخاصةً النصف الثاني من سورة الفجر: { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا.... }[الفجر:١٥-١٧]

وهذا تفكير خاطئ؛ فالإنسان هو الذي إذا أراد أن يهين أحدًا يمنع عنه المال، لكن الله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وهذه الدنيا بأسرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة[١].

ففكرة التقييم المادي للأفكار والتقييم المادي للأشخاص نقطة مهمة تكلمنا عنها كثيرًا وأشرنا إليها أيضًا في هذه السورة؛ لأن هذا معنىً محوريٌّ في سورة الكهف لكن لا يمكننا الوقوف عليه الآن لضيق الوقت.

{وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا}

وقد تعجب بعض المفسرين من قوله هذا: "ما أظن الساعة قائمة"؛ فهي تعني أنه غير مؤمن ومصدق بأن هناك ساعة، إذًا؛ لماذا رجع وقال: {ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا}؟!

وقد ظللت أفكر فيها، فمثلًا لو افترضنا سيناريو الأحداث من البداية أن المؤمن جاء يدعو الكافر إلى الله تعالى، فقال له الكافر: كلامك هذا لن يفيدني في شيء؛ فأنا أفضل منك ولن يتغير شيء مما أنا فيه، ولا يوجد ما يسمى بيوم القيامة، وحتى تسكت وتتوقف عن الكلام، سأقول لك: إذا جاء يوم القيامة هذا سأكون أفضل منك هناك أيضًا.

وقد أبدع الشيخ السعدي حقيقة في تفسير هذه القصة وكانت له لمسات رائعة؛ فقال عن معنى قول هذا الكافر: "{لأجدن خيرًا منها منقلبًا} أي ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين. وهذا لا يخلو من أمرين:

- إما أن يكون عالمًا بحقيقة الحال" -أي: يعلم أنه كاذب، وأنه إذا مات سيدخل النار؛ لأنه ينكر البعث- "فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء؛ فيكون من زيادة كفرٍ إلى كفره" -كاستهزاء العاص بن وائل في سورة مريم-.
- أو أن المعنى الثاني أن يكون كلامه جد، فيقول -السعدي-:"وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة؛ فهذا يكون من أجهل الناس وأبخسهم حظًّا من العقل؛ فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة؟!"

وهي جملة مركزة جدًّا من الشيخ السعدي: "فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة؟؛ حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى قد يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه" -راجعوا هذا الكلام في تفسير السعدي-.

---

١ [عن سهل بن سعد الساعدي:] لو كانتِ الدُّنيا تعدلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماءٍ الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٢٣٢٠ • صحيح

وبهذا نكون قد انتهينا من الجمل الثلاث التي قالها الكافر للمؤمن، والقرآن رد على هذه الجمل الثلاثة، فتعالوا نرى كيف كان رد الرجل المؤمن.

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
﴿٤١﴾

ولنتذكر أولًا جمل الرجل الكافر:

١. أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا.. (تفاخر على صاحبه).
٢. ما أظن أن تبيد هذه أبدًا.. (إنكار أن تبيد هذه الجنة).
٣. ما أظن الساعة قائمة.. (إنكار الساعة).

كيف كان رد المؤمن عليها؟

كان للمؤمن استراتيجية في الرد ينبغي أن تتعلمها حتى تتمكن من الرد على الشبهات والفتن؛ فالمؤمن رد عليه بأسلوب عجيب جدًّا، سبحان الله! عندما قرأت السورة منذ زمن، لاحظت أن المؤمن رد عليه بطريقة عكسية؛ فأجابه على الجملة الثالثة أولًا ثم الثانية ثم الأولى.

فكما ذكرنا جمل الكافر: "أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا، ما أظن أن تبيد هذه أبدًا، ما أظن الساعة قائمة"، رد المؤمن على إنكار الساعة أولًا، ثم رد على "ما أظن أن تبيد هذه أبدًا"، وقال له ما كان لك الحق في قول هذا بل كان ينبغي لك أن تقول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله"، ثم رد على الثالثة فقال له: ها أنت تتفاخر عليّ "إن ترني أنا أقل منك"، سوف ترى ماذا سيحدث لك؛ فهذا كله رد عكسي على كلام الكافر.

ما الذي نتعلمه من ذلك؟ هل نتعلم منه أن نرد ردًّا عكسيًّا على من يأتينا بالشبهات؟ بالطبع لا.

ما نتعلمه هو أن **نرد بحسب الأولوية**، فالمؤمن رد ردًّا معكوسًا؛ لأنه وجد أن الجملة الثالثة فيها كفر، فهل يتركها ويرد على المفاخرة بالمال أولًا؟! بالطبع لا، فهو يجب أن يغضب لله أولًا، ورتبهم حسب أولويتهم وبدأ بالرد؛ فالذي حدث أنه تفاخر ثم قال جملة خاطئة تحتاج إلى تصحيح ثم كفر، فرد على كفره وبين له كفره، ثم بين له خطأه في مسألة: "ما أظن أن تبيد"، وعلمه ما ينبغي عليه قوله حين يرى النعمة، ثم رد على المفاخرة، رد ردًا عكسيًا.

الرد الأول

١-قال له: {ما أظن الساعة قائمة}، فرد عليه: {أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا}، وبعدها بين موقفه قبل أن ينتقل إلى النقطة الثانية، وقال: {لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا}

{قال له صاحبه وهو يحاوره} بدأ الرد، والتعبير بلفظ "صاحبه" ولفظ "يحاوره" في القرآن في هذه الآيات يدل على أنه لا بأس من أن نسمح بالحوار في الرد على شبهات الكفر، أما إذا انتقل الأمر كما في قصة ذو القرنين إلى حرب ومجموعات فهنا ننتقل إلى مرحلة أخرى.

{قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت} هل يُكفِّر المؤمن صاحبه؟ المؤمن هنا لم يكفر صاحبه، بل هو الذي اعترف بكفره وقال: "ما أظن الساعة قائمة"، فكلمة "أكفرت" هنا للتنبيه، ولم يقل له: "أكفرت" وينهي كلامه على هذه الحال، بل سلك مسلك الدعوة إلى الله وذكره بأصله {أكفرت بالذي خلقك من تراب}.

وانتبهوا معي إلى هذه النقطة -وقد ذكرتها سابقًا ربما في سورة العلق-؛ حيث يأتي القرآن بمراحل الخلق (تراب، طين، صلصال، حمأ مسنون، نطفة، علقة، مضغة..) أحيانًا يذكرها جميعًا، وأحيانًا يذكر القرآن مرحلة واحدة؛ فمثلًا في سورة العلق: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ } [العلق:١-٢]

لماذا ذكر العلق في أول سورة -العلق- ولم يذكر التراب أو المضغة أو النطفة؟! وهنا في هذه السورة التي معنا: {الذي خلقك من تراب ثم من نطفة}، ولم يقل: "ثم من علقة ثم من مضغة"، بل قال له: {ثم سواك رجلًا}؛ فأتى بأهم نقطتين؛ لأن هاتين النقطتين تعبران عن أكثر مرحلة فيها نوع من الإهانة؛

لأنه رجل متكبر، وكأنه يقول له: لقد كنتَ ترابًا لا يذكر وكنتَ نطفة قذرة تتسخ منها الثياب، ثم سواك ربك وجعلك رجلًا، وها أنت قد نسيت نفسك وبت تقول أنا وأنا...، أذكرك بأصلك، أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا.

بعدها بين المؤمن موقفه، وهذه النقطة قد يقع فيها الكثير في مواقف النقاشات والمناظرات؛ حيث ينسى المناظر أن يبين وجهة نظره، وينشغل بالرد عن أن يبين اعتقاده.

لذلك يقول الشيخ السعدي: "لما رأى المؤمن صاحبه هذا على حاله واستمراره على كفره وطغيانه، فقال مخبرًا عن نفسه على وجه الشكر وعلى وجه الإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه".

فينبغي عليك دومًا أن تستعلن بدينك عند ورود الجدالات والشبهات وتفخر بدينك، ولا تشعر بالإحراج.

{لكنا هو الله ربي} ومعناها: لكن أنا أقول هو الله ربي، هذا كان أصلها، وبعد ذلك خففت الهمزة، ثم أُسقطت وأصبحت (لكننا هو الله ربي)، وبعدها أدغمت النون في النون وأصبحت {لكنّاْ هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا}.

الرد الثاني

٢-{ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}، رد عليه المؤمن بقوله: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله}.

وكأنه يقول له: أتذكر لحظة دخولك جنتك كان لا بد لك أن تقول هذا.

وقلت لكم سابقًا أن من يقرأ هذه الآية ينبغي عليه أن يفهم أن {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} مفصولة في معناها عن ما بعدها، فكلمة {إن ترني} تعتبر بداية جملة، هي ليست بداية آية، ولكنها بداية جملة أخرى.

إذًا هذه كانت الجملة الثانية من الرجل المؤمن للرد على الجملة الثانية للرجل الكافر -وهي جملة {ما أظن}-،

وكان ابن عطية أول من أشار إلى هذا الملمح حيث قال: "قوله: {لا قوة إلا بالله} هذا تسليم من المؤمن، وضدٌّ لقول الكافر: {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}"،ولقد أعجبني هذا الربط.

وأخذه ابن عاشور واستفاض فقال: "كان الشأن أن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، بدلًا من قولك: ما أظن أن تبيد هذه أبدًا".

إذًا الرجل الكافر {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه...}، سنضع هذه الآية في مقابل الآية {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله}

ولنشرح هذه الآية: {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله}

"لولا" قالوا هل هذا شرط، لكن ليس له جواب؟ لكن هي تأتي بمعنى: هلّا.

وقال ابن عاشور في هذا: أن "لولا" هنا بدخولها على الفعل الماضي تفيد معنى التوبيخ، {لولا إذ دخلت} كما هي في قوله تعالى: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء}، وبما أنه فعل ماضٍ، فكأنك تقول له: كان المفترض أنك تفعل كذا، أو كنت أتمنى أن تفعل كذا؛ فهنا أنا أوبخك لأنك لم تفعل هذا الفعل. فلولا أي هلا إذ دخلت جنتك قلت:

{ما شاء الله لا قوة إلا بالله} هذه الجملة تحتاج درسًا مخصصًا لها،

يقول أبو الحسن الندوي في كتاب "الصراع بين الإيمان والمادة من خلال سورة الكهف" -وكنت قد أشرت إلى أهمية هذا الكتاب في أول درس-: "أن هذه الجملة هي روح سورة الكهف ومفتاح القصة، وموقعها مهم جدًّا؛ لأنها ردٌّ على {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}.

إذا كانت "ما أظن أن تبيد" هي نفسية الطاغية، أو هذه هي قمة ما يصل إليه هذا الطاغية إحساس {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}، **فالإحساس لدى المؤمن هو قمة الافتقار إلى الله** {ما شاء الله لا قوة إلا بالله}.

{ما شاء الله لا قوة إلا بالله}، "ما" هنا:

- إما أن تكون شرطية، والمعنى: ما شاء الله كان؛ فجواب شرطها محذوف.
- أو تكون موصولة.
- وقال فيها ابن عاشور أنها نكرة، والمعنى: شيء شاءه الله.

والخلاصة في هذه الإعرابات الثلاثة –موصولة أو نكرة أو شرطية– أن تتعلم ما الذي تقوله عندما ترى النعمة، أن هذه النعمة جاءت لأن الله شاء، لم تأت إلا بإرادة الله ولولا إرادة الله ما جاءت.

فالجنة لم تكن لتأتي للرجل الكافر لولا إرادة الله، وسيارتك ما كانت ستأتيك لولا مشيئة الله، والابن والصحة والشهادة والوظيفة ما كنت لتتمتع بهم في حياتك لولا مشيئة الله.

وقد يأتي أحدهم ويقول: لكني تعبت حتى أحصل على هذه الوظيفة، أو تعبت حتى أحصل على الشهادة، أقول له: نعم لقد تعبت، وتعبك هذا ما هو إلا من عند الله.

و{لا قوة إلا بالله} أي: **ولا قوة مني على فعل ذلك إلا بالله سبحانه وتعالى**، وقد يتعب الكثيرون ولكن لا يحصلون على شيء.

يقول له: {ولولا إذ دخلت}؛ أي: لحظة دخولك تحديدًا؛ لأن **لحظة الدخول هي لحظة رؤية النعمة، وهذه اللحظة هي التي تُطغي الإنسان.**

{ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا }[الزخرف:١٣]؛ فبمجرد إحساسك بأنك تمكنت من الدابة أو السيارة يجب عليك أن تقول: "سبحان الذي سخر لنا هذا"؛ حتى لا تطغى وتحدثك نفسك بأن هذا ملكك وحدك؛ فهذه الكلمة تعبر عن نفسية المؤمن المتعلق بالله في كل شيء.

أريد منكم أن تجمعوا كل الأذكار التي تتضمن افتقارًا، مثل: (الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)[٢]

عند النوم: (... ناصيتي بيدك)[٣]، (باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه)[٤]، (أسلمت نفسي إليك)[٥] (من غير حول مني ولا قوة)، (أعني على ذكرك)[٦]، (لا تكلني إلى نفسي)[٧]، (أعوذ بك من شر نفسي)[٨]، حتى قلبي (يا مقلب القلوب)[٩]..

٢ [عن معاذ بن أنس:] مَنْ أكَلَ طعامًا ثُمَّ قال: الحمدُ للهِ الَّذي أطعمَني هذا الطعامَ، ورزقَنيهِ من غيرِ حولٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ، غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ، ومَنْ لبِسَ ثوبًا فقال: الحمدُ للهِ الَّذي كساني هذا، ورزقَنيهِ من غيرِ حولٍ مِنِّي ولا قُوَّةٍ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخَّرَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٦٠٨٦ • حسن • أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) باختلاف يسير، والترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وأحمد (١٥٦٣٢) مختصراً. •

٣ [عن عبدالله بن مسعود:] ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزَنٌ، فقالَ: اللَّهمَّ إنِّي عبدُكَ، وابنُ عبدِكَ، وابنُ أمتِكَ، ناصِيتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسألُكَ بِكُلِّ اسمٍ هوَ لَكَ، سمَّيتَ بهِ نفسَكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علَّمتَهُ أحدًا مِن خلقِكَ، أوِ استأثَرتَ بهِ في عِلمِ الغَيبِ عندَكَ، أن تَجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزْني، وذَهابَ همِّي، إلَّا أذهبَ اللَّهُ همَّهُ وحزنَهُ، وأبدلَهُ مَكانَهُ فرجًا
الألباني (ت ١٤٢٠)، الكلم الطيب ١٢٤ • صحيح • أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني (١٠/٢١٠) (١٠٣٥٢) باختلاف يسير

٤ [عن أبي هريرة:] إذا أوى أحَدُكُمْ إلى فِراشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِراشَهُ بداخِلَةِ إزارِهِ، فإنَّه لا يَدْرِي ما خَلَفَهُ عليه، ثُمَّ يقولُ: باسْمِكَ رَبِّ وضَعْتُ جَنْبِي وبِكَ أرْفَعُهُ، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عِبادَكَ الصّالِحِينَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٣٢٠ • [أورده في صحيحه] وقال : تابعه أبو ضمرة وإسماعيل بن زكرياء عن عبيد الله. وقال يحيى بن سعيد وبشر عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه مالك وابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٥ [عن البراء بن عازب:] أنَّ النبيَّ ﷺ أوْصى رَجُلًا، فقالَ: إذا أرَدْتَ مَضْجَعَكَ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، ووَجَّهْتُ وجْهِي إلَيْكَ، وألْجَأْتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إلَيْكَ، لا مَلْجأ ولا مَنْجا مِنكَ إلّا إلَيْكَ، آمَنْتُ بكِتابِكَ الذي أنْزَلْتَ، وبنَبِيِّكَ الذي أرْسَلْتَ. فإنْ مُتَّ مُتَّ على الفِطْرَةِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٣١٣ • [صحيح]

٦ [عن معاذ بن جبل:] يا مُعاذُ إنِّي واللَّهِ لأحبُّكَ فلا تدَعنَّ في دبرِ كلِّ صلاةٍ أن تقولَ: اللَّهمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسنِ عبادتِكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، الكلم الطيب ١١٣ • إسناده صحيح • أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٢٢١١٩)

٧ [عن أنس بن مالك:] ما يمنَعُكِ أن تسمعي ما أُوصيكِ [به]؟ [أن] تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ، وأَصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عَينٍ أبدًا
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٢٢٧ • إسناده حسن • أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٠٥)، والبزار (٦٣٦٨)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨)

٨ [عن أبي هريرة:] قلِ: اللَّهمَّ عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ فاطرَ السَّماواتِ والأرضِ، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ، أشهَدُ أن لا إلَهَ إلّا أنتَ، أعوذُ بِكَ من شرِّ نفسي، وشرِّ الشَّيطانِ وشِركِهِ وفي رواية وأن أقترِفَ على نفسي سوءً أو أجُرَّهُ إلى مسلمٍ، قُلهُ إذا أصبحتَ وإذا أمسَيتَ، وإذا أخذتَ مضجعَكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، الكلم الطيب ٢٢ • حسن صحيح • أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي (٧٦٩٩)، وأحمد (٧٩٦١) باختلاف يسير.

٩ [عن أم سلمة أم المؤمنين:] كانَ أَكْثرُ دعائِهِ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ قالَت فقُلتُ يا رسولَ اللَّهِ ما أَكْثرُ دعاءِكَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ قال يا أمَّ سلمةَ إنَّهُ ليسَ آدميٌّ إلّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ فَمن شاءَ أقامَ ومن شاءَ أزاغَ فتلا معاذٌ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣٥٢٢ • حسن • أخرجه الترمذي (٣٥٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٧٩) •

فهناك أذكار كثيرة جدًّا فيها دلالات وإشارات إلى الافتقار إلى الله؛ فنحن لا نملك شيئًا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح لقيام الليل: (أنا بك وإليك)[١٠].

إذًا؛ فكلمة "ما شاء الله لا قوة إلا بالله" كلمة محورية ترد على الطغيان النفسي الذي يحدث للإنسان عندما يرى النعمة؛ فالإنسان يحتاج إلى أن يذكّر نفسه دومًا أنه مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى.

انتهينا إذًا من رد المؤمن على الجملة الثانية، وبإمكانكم أن ترجعوا إلى تفسيرات السعدي، وابن عاشور، والطبري أيضًا في القصة كان مبدعًا حقيقة.

فالمؤمن رد على {ما أظن الساعة..} وقال له: أكفرت؟ وذكره بأصله.

والكافر عندما دخل جنته وقال: {ما أظن أن تبيد..} رد عليه المؤمن، وعلمه ماذا كان عليه أن يقول حينها، وهذه نقطة مهمة في النقاشات، فلا يكن همك الانتصار فحسب؛ فتفقد روحك التعليمية.

قال له: كان ينبغي بدل أن تقول: {ما أظن أن تبيد هذه أبدًا}، أن تقول: {ما شاء الله لا قوة إلا بالله}، وقلنا أن هذه الكلمة محورية، وهي مفتاح القصة، و"روح السورة" بتعبير الندوي.

الرد الثالث

في الثالثة قال: {أنا أكثر منك مالًا وأعز نفرًا}، فقال له: {إن ترن}؛ لو ترى أنني {أقل منك مالًا وولدًا فعسى ربي}، ولذلك قلنا أن بعض المفسِّرين أشار أن "نفرًا" معناه "ولدًا"؛ لأنه قال هنا: {أنا أقل منك مالًا وولدًا}.

{فعسى} هذا جواب "إن"، مع أنها جاءت في آية ثانية؛ حتى تظل مستحضرًا أن الآية هي شرط وجوابه.

---

١٠ [عن علي بن أبي طالب:] أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا استفتحَ الصَّلاةَ،كبَّرَ ثمَّ قالَ: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطرَ السَّماواتِ والأرضَ حنيفًا وما أنا منَ المشرِكينَ إنَّ صلاتي ونسُكي ومحيايَ ومماتي للَّهِ ربِّ العالمينَ لا شريكَ لَه وبذلِك أمرتُ وأنا منَ المسلمينَ اللَّهمَّ أنتَ الملِك لا إلَه إلّا أنتَ أنا عبدُك ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا لا يغفرُ الذُّنوبَ إلّا أنتَ واهدِني لأحسنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسنِها إلّا أنتَ واصرف عنِّي سيِّئَها لا يصرفُ عنِّي سيِّئَها إلّا أنتَ لبَّيكَ وسعديكَ والخيرُ كلُّهُ في يديكَ والشَّرُّ ليسَ إليكَ أنا بِك وإليكَ تبارَكتَ وتعاليت أستغفرُك وأتوبُ إليكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح النسائي ٨٩٦ • صحيح

إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

هذا الرد عجيب، وكثير من الناس أخذوا يفكرون فيه؛ لماذا قال، وكيف قال، وكيف حدث.

البعض تساءل إن كان ملهمًا محدّثًا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمم السابقة كان فيها محدَّثون؛ أي فيها أناس تُحدَّث وتُلهَم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن يكن في هذه الأمة يكن عمر)[11]، لذلك كانوا يقولون عن غلام الأخدود أنه كان ملهمًا وكان محدَّثًا.

والخلاصة أن هذا الرجل –أيًّا كان السبب الدافع لقوله ذلك القول– قال له: {إن ترنِ أنا أقل منك مالًا..}، وأعجبتني جدًّا ثقة الرجل المؤمن بأن الدنيا كلها تتغير؛ فيقول له: {فعسى ربي أن يؤتينِ}، {ويرسل} فقط بكل بساطة وأريحية.

{فعسى ربي أن يؤتينِ خيرًا من جنتك ويرسل عليها حسبانًا من السماء فتصبح صعيدًا زلقًا۝ أو يصبح ماؤها غورًا}؛ نحن يجب أن نثق بأن الله قادر على أن يغيِّر الأمور في لحظات، وهذا من المعاني الواردة في سورة الروم –يفضل أن ترجعوا إليها–؛ أن الأمور تتغير في لحظات؛ { غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }[الروم:٢-٧].

كثير من الناس ينشغلون بالظاهر، بينما المؤمن هنا بكل أريحية يقول له: الأمر بسيط جدًّا، أنت تفتخر، ولكن كل هذه الجنات والنخيل والأعناب قد يأتيها حسبان، أو تغور مياهها، وأنا ربنا يعطيني؛ فالموضوع بسيط.

بعض المفسرين –وهذا منتشر في التفاسير– قال: {فعسى ربي أن يؤتينِ خيرًا من جنتك} أي في الآخرة، أما جنتك في الدنيا فقد يصيبها هذا؛ لأن ربنا لما جاء بالأحداث ذكر ما حدث لجنَّتي المشرك

---

١١ [عن أبي هريرة:] إنَّه قدْ كانَ فِيما مَضى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وإنَّه إنْ كانَ في أُمَّتي هذِه منهمْ فإنَّه عُمَرُ بنُ الخَطّابِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٦٩ • [صحيح]

في الدنيا، ولم يذكر الله لنا أنه قد أعطى المؤمن عوضًا، وقد يكون أعطاه من الجنات، أو قد يكون ادَّخر له ذلك ليوم القيامة.

ولذلك قال المفسِّرون، وصديق حسن خان قال في "فتح البيان" -وهو دائمًا يلخّص الأقوال السابقة-: {خيرًا من جنتك} أي: في الدنيا أو في الآخرة.

{فعسى ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك} جنَّتك بكل بساطة يرسل عليها، والدنيا تتغيَّر ويؤتيني.

{ويرسل عليها حسبانًا من السماء فتصبح}

هل "فتصبح" أي: تستيقظ في الصباح وتجد ذلك؟، أم تنقلب -وهذا أشد على النفس-؟.

ما معنى "حسبانًا"؟ فيها خلاف كثير:

- هل "حسبان" اسم جمع لمفرد "حسبانة"، و"الحسبان" بمعنى المرامي ترمى، أو مجموعة من السهام كانت تُجمع في شيء واحد؛ فهذا معنى المرامي، وهذا من الطبري منقول عن بعض أهل اللغة من المتقدمين مثل ابن قتيبة، وغيره.
- أو بمعنى الصاعقة،
- أو "حسبان" مثل غفران بمعنى شيء محسوب؛ أي: عذاب محسوب،
- أو "حسبانًا " أي: حسابًا جزاءً؛ حسابًا لقولك؛ بمعنى أن العذاب سيكون مقابل أقوالك، فالله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، وكل هذه أقوال موجودة.

{حسبانًا من السماء فتصبح صعيدًا زلقًا}

تذكروا في أول السورة: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملًا}، وبعد ذلك: {وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزًا}؛ فمثلما تتحوَّل الأرض كلها، هنا يتحوَّل جزء من الأرض، ويصبح ماؤها غورًا، ولم يقل: "غائرًا"، فالماء يوصف بأنه غائر، لكنه قال:"غورًا" وهو مصدر؛ لأن هذا أبلغ في الوصف، وكأنه لن يخرج مرةً أخرى، لذلك يقول القرطبي: "وإلى هنا انتهت المناظرة بين أخيه"، أي: بدأ فِعل الله سبحانه وتعالى: {وأحيط بثمره}؛ فأنت تشاهد المشهد النهائي في القصة؛ حيث انتهت فجأة.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾

التعلق يكون بالله وحده

أريدك أن تتخيل الخلفية وهم يتناقشون، وجنات ونخيل، وفجأة حصل شيء هكذا؛ شيء يحيط، وأنت لا تعرف ما هو، والقرآن تركها مبهمة، وهذا دائمًا من الأساليب القرآنية التي تُحدِث خوفًا في نفوس الناس، مثل "تظن" في سورة القيامة: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٥]؛ شيء سيقصم ظهره، ما هو؟ لا يذكره القرآن، فهنا أيضًا: ﴿وأحيط﴾ ما هو هذا الذي يحيط؟ وانتبه للفظة الإحاطة؛ أي: لن يُترك منه شيء.

﴿وأحيط بثمره﴾ وانتبه لكلمة "بثمره" فهذه كانت بداية المشكلة عنده، وكانت بداية القصة كلها؛ فأول كلمة قالها: ﴿وكان له ثمرٌ فقال﴾، أليس هذا الثمر الذي جعلك تطغى؟!

أليست هذه الوظيفة؟ هذا المنصب؟ هذا الكرسي؟ هذه الشهادة التي جعلتك تطغى؟! ربنا قادر أن يضيّعها لك في لحظة، وتحاط بها كلها، وليس جزءًا فتهرب منه إلى جزء آخر، ﴿وأحيط بثمره﴾ ولم يقل: "بجنتيه"، لم يقل: "بشجره، بالأعناب والنخيل..".

فالتعبير القرآني استعمل اللفظ الذي جعله يطغى، ﴿وأحيط بثمره﴾؛ بحيث أن الشيء الذي كان ينتظره "وكان له ثمر" قد ضاع، فيا حسرة على هذا الموقف الذي هو فيه! قمة الألم!

لذلك جلس يقلِّب كفيه، ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلِّب كفيه على ما أنفق فيها﴾؛ استغراق، بعد أن أنفق كل ما يملك فيها، أخذ ينظر إليها وهي خاويةٌ على عروشها.

وقيل أن ﴿خاوية على عروشها﴾ بمعنى ساقطة؛ خاوية بمعنى خالية، وساقطة، والذي قال بأن العروش بمعنى السقف، قال بأن هذا تعبير معناه أن الجنات كانت عروشًا وسقفًا وجدران، فسقطت العروش ثم سقط الجدار عليها.

وأشار ابن عاشور إلى أن هذا المعنى استعمله القرآن للخراب التام حينما لا يبقى شيء، وهو موجود في سورة البقرة: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وذكر الماوردي أن "خاوية على عروشها" يشير إلى هلاك الأصل والثمر، وليس معنى "أحيط بثمره" أن الذي ذهب هو الثمر فحسب؛ بحيث يمكن أن يخرج في الموسم القادم، لا، بل ضاع كل شيء.

{وهي خاويةٌ على عروشها} وهنا يذكر أكثر من مفسِّر أنه تذكر قولة الرجل المؤمن: {أكفرت بالذي خلقك}، {فقال يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا}، فلم ينفعه شيء، وهنا لحظة الندم.

وهنا نقطة مهمة جدًا -قبل أن نكمل الآية التي تليها-: **خطورة أن تتعلَّق وتضع كل طموحك الدنيوي في شيء**؛ فهذا خطِر جدًا؛ لأنه قد يذهب لأي سبب، فقد يكون ضاع لشِركه وطغيانه وكفره، أو لأي سبب، وكثير من الناس قد يدخلون في اكتئاب وأزمات نفسيَّة بسبب أنهم وضعوا طاقتهم كلها عليها، بل قد يكون ذلك حتى في الطموحات الدينية!، ودعنا أولًا نتكلم عن الدنيوية ثم نتكلم بعدها عن الدينية.

في الدنيوية: أن لا تضع كل آمالك في شيء؛ فالأمر أبسط من ذلك، وكنت قد قرأت أن الشيطان أحيانًا عندما يريد أن يفسد بعض الشباب، يجعل شابًا يحب فتاةً بالحرام، ثم يسعى لإفساد هذه العلاقة؛ لأن الشيطان يعلم أن هذا التعلق إذا فسد سيدخل الشاب في حالة من الإحباط واليأس تجعله يفعل أي معصية بعد ذلك، والشيطان يريد إحساس ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥]: إحساس الإحباط واليأس والفشل والقنوط، وهذا الشعور عندما يكون في إنسان فمن الممكن أن يقوم بأي شيء؛ كأن يتعاطى مخدرات مثلًا.

والشيطان يسعى للوصول إلى هذه الحالة -والعياذ بالله- لأن اسمه أصلًا "إبليس" من الإبلاس واليأس؛ فهو يريد للناس أن يصلوا إلى هذه المرحلة، لذلك لا تيأسوا من روح الله أبدًا.

فالشيطان يسعى لكي تجعل آمالك الدنيوية كلها في شيء، وقد لا يتحقَّق هذا الأمر لسببٍ من الأسباب عقوبةً أو بلاءً، وهنا يُصاب الإنسان بإحباط؛ لذلك وزِّع طموحاتك وآمالك، واجعل تعلُّقك بالله.

وهذه نقطة مهمة جدًا: **لا تجعل مصدر قوّتك من خارجك، اجعل مصدر عزّتك وقوّتك من داخلك**.

لا تجعل مصدر قوّتك من خارجك؛ لا من المال، ولا من المنصب، ولا من شهادة، أو صديق، فكل ذلك قد يذهب، بل اجعله من داخلك؛ لذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "جنتي في صدري، ماذا يفعل أعدائي بي؟!".

فكل ما حولك من الأحوال –وهذا كما رأيناه في أزمة كورونا– من الممكن أن تتقلب في لحظات؛ فالذي كان يتوكل على كذا، أو يعتمد على كذا، أو يعتز بكذا؛ كل ذلك من الممكن أن يسقط، فلا تجعل نفسك شيئًا من ضمن الأشياء، وعندما ينهار ذلك الشيء تنهار معه؛ { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ } [القصص:٨١]؛ فكان قارون جزءًا من الدار؛ لأن كل حياته كانت تلك الدار، فخُسف بها، فانهار، بينما أنت إنسان فيك روح، وأنت كرّمت.

والإنسان يجعل تعلقه بالله سبحانه وتعالى، فمهما انهارت الأشياء من حوله يظل له قيمة؛ فالإنسان قيمته كإنسان بالله سبحانه وتعالى، ومهما انهارت هذه الأشياء؛ فقد شيئًا، أو فقد شخصًا، أو وظيفةً، يظل معتزًا مفتخرًا بالله سبحانه وتعالى.

نحن في غزوة أحد، وفي قمة الهزيمة والدماء، والمشركون يعيّروننا، وربنا سبحانه وتعالى يقول: { وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ }، كيف يا رب؟ { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [آل عمران:١٣٩]؛ إن حقّقتم الإيمان بداخلكم، أنتم الأعلون، فالعلو يكون بهذا الإيمان الذي في الصدور، { إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ } [طه:٦٨] كما قال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام.

كذلك الأمر في الدين عندما يضع أحدهم كلَّ طموحه الديني في شيء، أو وسيلة نصرة الدين في شيء، وتُفقد هذه الوسيلة؛ من فضائيات تُغلق، أو وسائل تواصل تغلق، أو ماديات تُفقد؛ فالإنسان يجب أن يتعلَّق بالله. فالنبي صلى الله عليه وسلم يجرب الحبشة ويرسل الناس إليها، فلا تكون الأفضل، ثم يذهب هو إلى الطائف، فلا تكون الطائف أيضًا هي المناسبة ، لكنه لا يفقد الأمل في الله؛ لأنَّنا نسير بالله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى حيٌّ قيوم لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم. فقال ربنا سبحانه وتعالى: {يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا}.

وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

ثم قال: {ولم تكن له فئة}؛ أين النفر؟ أين الجند؟ أين الناس؟! {ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله}؛ فلا هم سينصرونه، ولا هو يستطيع أن ينتصر {وما كان منتصرًا}.

وهناك من يقرؤها: {وما كان منتصرًا هنالك}، وقد أشار ابن كثير إلى هذه القراءة: {وما كان منتصرًا۞هنالك} وتقف، ثم تقول: {الولاية لله الحق}.

أو: {وما كان منتصرًا} وتقف، ثم تقول: {هنالك الولاية لله الحق} -وسنشرح ذلك عند الآية التي بعدها-.

{هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ ثوابًا وخير عقبًا}

وقد اختلف القرَّاء في قراءة "الولاية"؛ فالجمهور وقراءتنا نحن وغالب القرَّاء على أنَّها بفتح الواو: "الوَلَايَة"؛ {هنالك الوَلاية لله الحق}.

وقرأ بعض الكوفيين -الكسائي وغيره-: {هنالك الوِلاية لله الحق} بكسر الواو، والإمام الطبري مال إلى قراءة الكسر واختارها، وقال أنَّ "الوَلاية" -بفتح الواو- بمعنى الموالاة؛ أي أن الله سبحانه وتعالى يتولَّى المؤمنين، وليست الآية هنا تتكلَّم عن الوَلاية، الآية هنا تتكلم عن السلطان؛ والوِلاية فيها السلطان.

وكثير من الذين قرأت لهم بعد ذلك ونقلوا عن بعض أهل اللغة من الفرَّاء وغيره قالوا: أن الوَلاية ليست هي أن الإنسان يتولَّى فحسب؛ وإنما الولاية فيها معنى النصرة، والذي لاحظته -وهذه فائدة لمن يقرأ في التفاسير- أنَّ الطبري وابن كثير -وابن كثير يعتمد دائمًا على الإمام الطبري- لم ينقلا معنى النصرة عندما ذكرا كلمة "الولاية"؛ فابن كثير قال أن الوَلاية لها معنى الموالاة، والطبري لما أحسَّ أن الوَلاية من المولاة، قال أنها ليست مناسبة مع الآيات، فاختار الوِلاية.

فالذي قال أن الوَلاية -بفتح الواو- فيها النصرة قال: أي هنالك ينصر الله، أو هناك تظهر النصرة لله سبحانه وتعالى، وتصلح الاثنتان -وأنا أردت أن أُشير إلى المعنى- .

تعالوا نأخذ القراءة الأولى: قراءتنا قراءة حفص وقراءة الجمهور: {هنالك الوَلاية لله الحق}، ما معناها؟

الوَلاية:

- إما بمعنى الموالاة،
- أو بمعنى النصرة.

ولنأخذ أولًا النصرة؛ فأول خلاف سيفرّع لنا هو "الولاية" ومعناها، ثم الخلاف الثاني في: "هنالك" أين؟

"هنالك" سنفرّع منها معنيين:

- هنالك أي: في الدار الآخرة، وهذا اختاره كثير من المفسّرين،
- أو "هنالك" أي: في هذه اللحظة؛ لحظة الإهلاك.

والوَلاية غير الوِلاية؛ "الوَلاية" فيها النصرة وفيها الموالاة.

الآن لو قلنا أن "هنالك" أي: في هذه اللحظة، واخترنا قراءة الوَلاية؛ يكون المعنى: في هذه اللحظة؛ لحظة الإهلاك العظيمة –التي رآها المؤمن– تظهر نصرة الله سبحانه وتعالى لهذا الرجل المؤمن.

أن ربنا سبحانه وتعالى يقدِّر أقدارًا على مدار التاريخ، لا تتكرَّر كثيرًا، لكنه يقدِّر أقدارًا تُظهر اسم الله "الظاهر"؛ كأن يرينا ربنا إهلاك قرية، أو خسفًا بشخص، أو تعذيب شخص، لكن هذا ليس الأصل؛ مثلًا إهلاك فرعون، لا يعني بالضرورة أنَّ كل فرعون سيغرق كما حدث مع فرعون الذي ذُكر في قصة موسى، وكم من الفراعين وُجِدوا!

وربنا يقدِّر هذه الأقدار ليزداد أهل الإيمان اطمئنانًا، وتكون عبرة للناس؛ { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال:٤٢].

فالوَلاية بمعنى النصرة؛ أي: في هذه اللحظة ظهرت نصرة الله سبحانه وتعالى واضحة جليَّة، والله قادر على أن ينصر أولياءه سبحانه؛ هنالك الولاية لله فقط الحق سبحانه وتعالى.

أما إن كانت "هنالك" بمعنى في الدار الآخرة ينصر الله سبحانه وتعالى أولياءه المؤمنين؛ فهذه واضحة.

"الوَلاية" بمعنى الموالاة –التي لما وجدها الطبري هكذا رأى أن اختيار الوِلاية أفضل، والوِلاية أي السلطان– أي: يتولَّى، وهذا الذي اختاره ابن كثير في قراءة الوَلاية –ركِّز معي وحاول أن تقوم بعمل تفريعات–؛ حيث قال أن قراءة الوَلاية: هنالك يتولَّى الناسُ الله، أي يلجؤون إلى الله؛ يقول في هذه اللحظة، وهي لحظة الإهلاك والتعذيب والغرق، كل الناس يقولون: "يا رب"؛ أي يلجؤون إلى الله سبحانه وتعالى، كما قال فرعون: { قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[يونس:٩٠].

لذلك يقول ابن كثير: "هنالك" أي: كل أحد من مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع إليه.

فابن كثير لما اتبع الطبري في أن يدع الوِلاية بمعنى الموالاة، قال بأنه ليس شرطًا أن تكون الولاية من الله للعبد؛ فالعبد هنا يرجع لربنا، والكل في هذه اللحظة يقول آمنت؛ كما يقول المثل المشهور: "لا يوجد ملحد في الخنادق ولا في الحروب"؛ ففي ساعة الأزمة والضرب الكل يهرب، وفي منتصف البحر كل المشركين يقولون: يارب!

إذًا؛ هنالك تظهر قدرة الله، وهنالك يقول الكل: "يا رب".

وإن قلنا بأن معنى الولاية هو السلطان؛ فهذه واضحة؛ ففي هذه اللحظات يظهر سلطان الله جليًا لكل الناس، حتى للمعاند.

ولو قلنا: "هنالك" في الدار الآخرة؛ في الدار الآخرة سلطان الله لا يُنَازَع.

إذًا:

- "هنالك" لها معنيان:
  - الدار الآخرة،
  - أو لحظة الإهلاك.
- "الوِلاية":
  - السلطان،
  - أو "الوَلاية": بمعنى النصرة أو معنى الموالاة.

- "الموالاة": هل يتولى الله أهل الإيمان؟ هنالك في هذه اللحظات، يتولى الله أهل الإيمان ويخذل الله أهل الكفر والفجور والعصيان؟

- أم الوِلاية بمعنى: هنالك يتولَّى الإنسان ربَّه ويعود إلى الله أيًا كان مؤمنًا أو كافرًا؟.

فنحن عندنا هذه الأقوال، وكلها موجودة ومذكورة، ومِن أكثر من حاول أن يفصّل فيها الإمام الرازي؛ فذكر الأقوال الأربعة بالتفصيل وشرحهم، وذكرهم الزمخشري دون تفصيل، ففصَّلهم الرازي بتفصيل هادئ، والذي يريد الخلاصة يرجع إلى ابن كثير –إن لم يرِد أن يرجع إلى تفصيل الرازي–.

وكما قلت لكم هناك من اختار أن "هنالك" بمعنى اليوم الآخر، ابن عجيبة مثلًا يرى أن الدار الآخرة أفضل.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

وبعدما انتهت القصة أتى تعقيب: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء}

فالذي لم يرَ قصة صاحب الجنتين، والذي لا يصدِّق، ولا يستطيع أن يعيش مع قصة الإهلاك، سنضرب لكم مثلًا عينيًّا أمامكم؛ فانظروا إلى المطر، فالذي استغرب من ذهاب الجنات والزرع والنخيل والأعناب والنهر في لحظة، سنذكر له شيئًا آخر: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا}؛ فالدنيا كلها هكذا، وليس فقط جنَّتي الرجل المشرك، كما قلنا في أول السورة: {إنا جعلنا ما على الارض زينة}، وبعد ذلك سيصبح {صعيدًا جرزًا}.

{واضرب له مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به}:

- إما "به" أي: بسبب الماء،
- أو "به" اختلطوا ببعض.

{فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا}؛ و"هشيم" هنا أي: مهشوم مكسَّر، لكن من الجمال أن صيغة "فعيل" هذه فيها ثبات؛ أي: لن يرجع مرة أخرى {تذروه الرياح}.

والجميل هنا في المثل في سورة الكهف، وهذا المثل لمن يحفظ {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء} قد يختلط مع آية سورة يونس، في سورة يونس هناك تفصيل: { حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ... }[يونس:٢٥]، لكن هنا في سورة الكهف لم تذكر مرحلة الزينة أصلًا، مع أن السورة تتكلَّم عن الزينة، وأنا كنت أتصور هنا أن تأتي صورة الماء الذي اختلط بالنبات فخرج أصفر وأحمر وأخضر، والناس انبهروا به، لكن الآية لم تذكر هذه المرحلة، وكأنها لا ينبغي أن تُذكر.

ومَن لبس نظارة سورة الكهف يفهم هذا المثل؛ يقرأ هذا المثل فيفهم أن **مرحلة الزينة لا يُلتَفت إليها ولا يُتعلَّق بها**.

{فاختلط به نبات الأرض}، ومباشرة: {فأصبح هشيمًا تذروه الرياح }.

{وكان الله على كل شيءٍ مقتدرًا}؛ على إهلاك الكافرين، وعلى تدمير الجنَّتين، وعلى البعث؛ على كل شيءٍ مقتدرًا.

ثم التعقيب في نهاية القصة: ما هي الزينة، وما هي القيمة؟ وما هو الفارق بين الزينة والقيمة؟ هذا سنذكره إن شاء الله في الحلقة القادمة بإذن الله سبحانه وتعالى؛ حيث سنذكر الآيات التي عقَّبت على هذه القصة وكانت افتتاحًا للقصة القادمة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يُعيننا وأن يوفِّقنا، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصَّته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وجزاكم الله خيرًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.